يختلفُ عالَمُ القرنِ الواحدِ والعشرينَ عن القرونِ السَّابقةِ .
في منتصفِ القرنِ العشرين قال الفيلسوفُ الفرنسيُّ «مارلو»- وزيرُ الثَّقافةِ في حكومةِ الرئيسِ الجنرال «شارل ديغول»: إنَّ القرنَ الواحدَ والعشرين يكونُ دينياً أو لا يكونُ، ولقد كان. فدراساتُ الأممِ المتَّحدةِ تقولُ: إنَّ (٨٤) من شُعوبِ العالَمِ تؤمنُ بدينٍ أو بعقيدةٍ ما .
وتقولُ هذه الدراساتُ أيضًا:
١- إنَّ المسلمينَ الذين يزيدُ عددُهُم على ٢,١ مليار إنسانٍ يعيشُ ثلثُهُم في دولٍ ومجتمعاتٍ غيرِ إسلاميَّةٍ:
كخ معَ الهندوسيةِ في الهندِ.
كخ مع البُوذيَّةِ في الصينِ وتايلند.
كخ معَ الأرثوذكسيَّةِ في روسيا.
كخ معَ الكاثوليكيَّةِ في أوروبا وأمريكا الجنوبيَّةِ.
كخ مع الإنجيليَّةِ في الولاياتِ المتَّحدةِ، وسواهَا.
٢- وتقول أيضًا: إنَّ المسيحيينَ الذين كانوا حتَّى مطلعِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ يُشكِّلونَ أكثرَ من (٨٠) من سُكَّانِ أوروبا والأمريكتينِ، يعيشُ ثلثُهُم اليومَ في أفريقيا وحْدَها، وثُلثُهم الثَّاني في آسيا وأمريكا الجنوبيَّةِ، أي: إنَّ المسيحيَّةَ أصبحتْ أيضاً دينَ العالَمِ الثَّالثِ الفقيرِ والملوّنِ والمضطهَدِ. ثُمَّ إنَّها تختلطُ مع الأديانِ الأخرى: الإسلامِ والبُوذيَّةِ والهندوسيَّةِ «ففي كوريا الجنوبيَّةِ يزيدُ عددُ أتباعِ الكنيسةِ الأمريكيَّةِ الإنجيليَّةِ المَشْيَخِيَّةِ(*) على عددِ أتباعِهَا من الأمريكيينَ في الولاياتِ المتَّحدةِ ذاتِهَا.
هذا الاختلاطُ بينَ أهلِ الأديانِ والعقائدِ إذا لم يترافقْ مع ثقافةٍ تقبَلُ التَّعدُّدَ، فإنَّه يُشَكِّلُ قنابلَ موقوتةً تُعرِّضُ السِّلمَ بينَ شُعوبِ العالَمِ إلى الخَطَرِ.
وتُشَكِّلُ ظاهرةُ الشّعبويّةِ في أوروبا والولاياتِ المتَّحدةِ مُؤشرًا على ذلك، فالشّعبويَّةُ من حيثُ إنَّها ترفضُ الآخرَ المختَلِفَ دينيًّا وثقافيًّا واثنيًّا-(عنصريًّا)، بدأت تصطدمُ بالجماعاتِ التي استوطنتْ البلادَ ذاتها، وأصبحتْ جزءًا منها .
تترافقُ هذه الشّعبويَّةُ المتضخمةُ مع الإسلاموفوبيا؛ وهي ثقافةٌ استعدائيَّةٌ تَتَضَخَّمُ مثلَ كرةِ الثَّلجِ .
- في عامِ ٢٠١٣م صدرَ في الولاياتِ المتَّحدةِ كتابٌ عنوانُهُ:

"The Islamophobia Industry"، المؤلِّفُ هو ناثان لين (Nathan Lean) - رئيسُ مركزِ دراساتِ الإسلاموفوبيا في جامعةِ جورج تاون (واشنطن)، يتحدثُ الكِتابُ عن عملٍ مُنسَقٍ تقومُ به مجموعاتٌ من:
السِّياسيينَ.
المثقفينَ.
القادةِ الدِّينيينَ.
الإعلاميينَ.
الخُبَراءِ في التَّواصلِ الاجتماعيِّ.
تعملُ هذه المجموعاتُ كُلُّ جماعةٍ في ميدانِ اختصاصِهَا، وفي دائرةِ علاقاتِهَا على هَدَفٍ مُشتركٍ واحدٍ، وهو شيطنةُ الإسلامِ (To demonize Islam).
وقبلَ أنْ تتحولَ عمليةُ شيطنةِ الإسلامِ إلى حرفةٍ يقومُ بها خبراءٌ واختصاصيُّونَ وسياسيُّونَ من صَيَّادِِّي الفُرصِ، كانت هذه العمليةُ تتمُّ من خلالِ (هوليود)(*).
فالسِّينمَا الأمريكيَّةُ كانت دائماً تُشيطنُ الإسلامَ عن طريقِ تصويرِ المسلمِ والعربيِّ تحديدًا على أنَّهُ: زيرُ نساءٍ، مسرفٌ وفاسدٌ، غدَّارٌ وخائنٌ، لصٌ وكذَّابٌ، بَشِعٌ ووسخٌ ....الخ .
ليس صحيحًا أنَّ الإسلاموفوبيا ظاهرةٌ غربيَّةٌ (أوروبا - أمريكيا) فقط، لقد تحولَتْ بفعلِ الإرهابِ الذي انفجرَ باسمِ الإسلامِ إلى ظاهرةٍ عالَميَّةٍ تشملُ آسيا وأفريقيا أيضًا، وحتَّى أمريكا اللاتينيَّةِ.
إنَّ ظاهرتَي الشَّعبويَّةَ والإسلاموفوبيا تشكِّلانِ وجهَيْنِ لحالةٍ واحدةٍ؛ وهي ظاهرةُ رَفْضِ الاختلافِ والتَّعددِ، والله سُبْحانَهُ وتَعالى خَلَقَ النَّاسَ مُختلفينَ ودَعاهُم إلى التَّعارُفِ، بمعنَى: تَقَبُّلِ واحترامِ الاختلافاتِ؛ لأنَّها موجودةٌ ومستمرةٌ بإرادةِ اللَّهِ ومشيئتِهِ .
واقعيًا تُشَكِلُّ الشَّعبويَّةُ مدخلاً لإعادةِ أوروبا إلى ما كانتْ عليه قبلَ الحربِ العالَميَّةِ الثَّانيةِ، حيثَ ذهبتْ الشَّعبويَّةُ إلى أقصى التَّطرفِ من خلالِ الحركاتِ النَّازيَّةِ والفاشيَّةِ، فكانتْ النَّارُ التي أحرقتْ أوروبا ومعَها العالَم، ولذلك فإنَّ من مصلحةِ الغَرْبِ التَّصدِي لهذه الحركاتِ قبلَ فواتِ الأوانِ.
أمَّا الإسلاموفوبيا: فإنَّها في جوهرِهَا تعبيرٌ فجٌّ عن هذه الشّعبويَّةِ، وقد ارتفعتْ وتيرةُ هذا التَّعبيرِ إلى مستوى اللغةِ البَذِيئةِ والأعمالِ العدوانيَّةِ

بسببِ ارتفاعِ نسبةِ الهجرةِ إلى أوروبا نتيجةَ الأحداثِ التي عصفتْ بالشَّرقِ الأوسطِ، وبشرقِ آسيا (أفغانستان) .
من هُنا تتلاقَى المصلحةُ الغربيَّةُ في التَّصدِّي للشَّعبويَّةِ مع المصلحةِ الإسلاميَّةِ في التَّصدي للإسلاموفوبيا .
يصبُّ التقاءُ المصالحُ هُنا في مصلحةِ السَّلامِ العالَميِّ، غيرَ أنَّ ما يلفتُ النَّظرَ أنَّه في الوقتِ الذي يعلنُ الأزهرُ الشَّريفُ -بمرجعيَّتِهِ الإسلاميَّةِ الأولى، وعلى لسانِ إمامِهِ الأكبرِ فضيلةِ الشيخِ الدُّكتور/أحمدِ الطَّيِّبِ، ومن خلالِ بياناتٍ رسميَّةٍ صدرتْ عنهُ- إسقاطَ مقولةِ الأكثريَّةِ والأقلِّيةِ في المجتمعاتِ الوطنيَّةِ، وعندمَا يدعُو إلى إقامةِ الدَّولةِ الوطنيَّةِ التي يتساوَى فيها جميعُ المواطنينَ في الحقوقِ والواجباتِ على اختلافِ أديانِهم وعقائدِهِم وأجناسِهِم في هذا الوقتِ بالذَّاتِ، تتحولُ موجاتُ الشَّعبويَّةِ والإسلاموفوبيا في الغربِ إلى تُسونامي(*) تَجرفُ معها كُلَّ قيمِ الإنسانيَّةِ والحضارةِ والأخوّةِ بينَ النَّاسِ.
لقدْ دعَا فضيلةُ الإمامِ الأكبرِ إلى مدِّ جسرٍ أخلاقيٍّ إنسانيٍّ بينَ الإسلامِ والغربِ تحقيقاً للأمنِ والسَّلامِ، ولكنَّ الجسرَ لا يقومُ على قاعدةٍ واحدةٍ.
إنَّ ممَّا يدعو للقلقِ أنَّ الإيمانَ بضرورةِ إقامةِ القاعدةِ الثَّانيةِ لم يتبلورْ بعدُ، ففي الولاياتِ المتَّحدةِ مثلاً تجري في الوقتِ الحاضرِ انتخاباتٌ نصفيَّةٌ لأعضاءِ الكونغرس، والخطابُ الانتخابيُّ - كما تُؤَكِّدُ دراساتُ مؤسَّساتِ الاستطلاعِ الأمريكيَّةِ ذاتِهَا - يقومُ بنسبةِ(٨٠) منه على العداءِ والكراهيةِ للإسلامِ، حتَّى إنَّ المرشحينَ المسلمينَ من المواطنينَ الأمريكيينَ لبعضِ المقاعدِ في الإدارةِ أو في الكونغرس، يُعتَبَرُ ترشيحُهُم مؤامرةً ضِدَّ الولاياتِ المتَّحدةِ . لماذا ؟ لأنَّهم مسلمونَ .
في الأساسِ ليسَ الخطابُ الإسلاميُّ موجَّهاً إلى المسلمينَ حصرًا، إنَّه خطابٌ للعالَمينَ، إنَّه خطابٌ للإنسانيَّةِ جمعاءَ، والإنسانيَّةُ ليستْ على دينٍ واحدٍ أو ثقافةٍ واحدةٍ، وهي ليستْ من عنصرٍ واحدٍ، أو قوميَّةٍ واحدةٍ.
الإنسانيَّةُ متعددةُ الأعراقِ والأجناسِ، متعددةُ الأديانِ والعقائدِ، متعددةُ اللغاتِ والثَّقافاتِ، وهذا التَّعددُ قائمٌ ومستمرٌ حتى قيامِ السَّاعةِ بإرادةٍ إلهيَّةٍ، ولحكمةٍ إلهيَّةٍ .

ولقدْ وضعَ القرآنُ الكريمُ قاعدةً للخطابِ الإسلاميِّ إلى النَّاسِ كافَّةً يمكنُ اختصارُهَا في نصٍّ آيةٍ واحدةٍ من القرآنِ الكريمِ تتألفُ من ثلاثِ كلماتٍ فقط، وهي:" وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً "[البقرة: ٨٣].
ينطلقُ القولُ الحسنُ من العملِ الحسنِ الملتزمِ بالإرادةِ الإلهيَّةِ باحترامِ التَّعددِ والاختلافاتِ بين النَّاسِ، والمؤمنُ بالإرادةِ الإلهيَّةِ في أنَّ اللَّهَ وحدَهُ يحكُمُ بينَهُمْ يومَ القيامةِ فقط فيمَا كانُوا فيهِ يختلفونَ، وهذا يعنِي لا شَرْعيَّةَ للتفتيشِ في ضَمَائرِ النَّاسِ والحكمِ عليهم، وهو تثبيتٌ لمبدأ احترامِ حريَّةِ الضميرِ.
ولذلك عندما سُئلَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم من هو الْمُسْلِمُ؟ أجابَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، أي: من أيِّ فِعْلٍ سَيِءٍ يقومُ بهِ، أو من أيِّ قولٍ سَيِءٍ يَصْدُرُ عنهُ.
إنَّ الجرائمَ التي ارتكبَهَا المتطرفونَ الإرهابيونَ -والتي يوظِّفُهَا دعاةُ الإسلاموفوبيا- لم يَسْلَمْ منها النَّاسُ، المسلمونَ منهم وغيرُ المسلمينَ على حدٍّ سواءٍ، لا قولاً ولا عملاً، ولذلكَ فهي ليست من الحُسْنِ في شيءٍ، وبالتَّالي ليستْ من الإسلامِ في شيءٍ، إنَّ كُلَّ ما أنْتَجَتْهُ هو أنَّها وفَّرتْ للإسلاموفوبيا الْمُبَرِّرَ والمادَّةَ الغزيرةَ للبناءِ عليها .ولذلكَ فإنَّ مقاومةَ الإسلاموفوبيا تبدأُ من رَصْدِهَا، ومن ثَمَّ التَّعامل معها برُوْحِ ونصِّ الآيةِ الكريمةِ: " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً" [البقرة: ٨٣].
لقد انتهى زَمَنُ الخوفِ على الإسلامِ من التَّغريبِ -أي: من التَّأثُّرِ بعقليَّةِ الغربِ وثقافتِهِ- نحنُ في زمنِ الخوفِ على الإسلامِ من التَّخريبِ.
وما الإسلاموفوبيا اليوم سِوى بذرةٍ تخريبيَّةٍ يُخْشَى أنْ تُنْبِتَ شجرةَ الزَّقومِ الجهنميَّةِ التي لا تُثْمِرُ سِوى نَارِ الكراهيَّةِ؛ كراهيةِ العالَمِ للإسلامِ، وكراهيَّةِ المسلمينَ للعالَمِ، وكراهيَّةِ بعضِ المسلمينَ لبعضِ المسلمينَ، وكراهيَّتِهِم حتَّى لأنفسِهِم، والإسلاموفوبيا الذَّاتيَّةُ هي الأسوأُ، وهي الأخطرُ.
أخيرًا .. نحنُ نواجِهُ مشكلةً كبيرةً، والتَّعريفُ الصَّحيحُ للمشكلةِ هو نصفُ الطَّريقِ إلى معالجتِهَا، فليسَ صحيحاً أنَّ الإسلاموفوبيا هي مؤامرةٌ خارجيَّةٌ فقط، إنَّها من صُنْعِ أيدي بعضِ مَنْ ينتسبونَ إلينا أيضاً .
ولذلك فإنَّ عمليةَ رصدِ الإسلاموفوبيا يفترضُ أنْ تستهدفَ مصدَرَيْهَا معًا: المصدرَ الخارجيَّ الذي يتغذَّى على صُوَرٍ نمطيَّةٍ سلبيَّةٍ موروثةٍ تُعَزِّزُها مصالحُ دوليَّةٌ.

والمصدرَ الدَّاخليَّ الذي ينطلقُ من سُوءِ تأويلِ النُّصوصِ الدِّينيَّةِ، ومن سُوءِ تقديمِهَا إلى العالَمِ الإسلاميِّ، وإلى العالَمِ على أنَّها هِي الإِسلامُ .
إنَّ عمليةَ الرَّصدِ ببُعْدَيْهَا الخارجيِّ والدَّاخليِّ تُشَكِّلُ الأساسَ العِلْمِيَّ لمواجهةِ هذه الظَّاهرةِ الخطيرةِ.
مِن هُنا أهميةُ البياناتِ التي صدرتْ عن الأزهرِ الشَّريفِ والتي تُشَكِّلُ الأساسَ والقاعدةَ لبناءِ علاقاتِ سلامٍ بين الإسلامِ والغربِ، وتالياً بين الإسلامِ والعالَمِ .
***